المسألة السكانية في فلسطين

McCarthy, Justin; *The Population of Palestine, Population Statistics of the Late Ottoman Period and the Mandate,* New York: Columbia University Press, The Institute for Palestine Studies Series, 1990, 242 Pages

ليس اهتمام جوستين مكارثي في ديمغرافيا المنطقة اهتماماً عابراً. ان نوعية أعماله التي تصدّى فيها لهذا الموضوع، وجودة انتاجه، والزخم الأكاديمي الذي يرافقه، تجعل ما يقوله في مقدمة كتابه مقبولاً، حتى من قارىء غير متخصص في هذا المجال. فهو يلحظ إنْ كان من المناسب ان يحتوي كتاباً ما على جداول احصائية أكثر ممّا يتضمّنه من تحليلات وشروحات ضافية لهذه الاحصاءات. لكنه يسارع الى تحديد هدف الكتاب بطرح عدد من الاسئلة: ماذا كان حجم سكان فلسطين في أواخر العهد العثماني وفي فترة الانتداب البريطاني؟ ما هو حجم ووزن الجماعات الدينية والاثنية المختلفة في فلسطين؟ وكيف أثّرت الهجرة، ديمغرافياً، في التركيبة الداخلية للسكان؟

وإذا كان موقع السائل ـ وهو، بالمناسبة، استاذ التاريخ في جامعة لويسفيل، ومتخصّص في ديمغرافيا الشرق الاوسط ـ مهماً الى الدرجة التي يعتقدها البعض، فليس من السهل ان يستحوذ كتابه على اهتمام قطاع واسع من القراء، إنْ لجهة تخصصه، أو لجهة سعره المرتفع نسبياً. ولكن على الرغم من ذلك، فان ما سنحاول تبيانه، هنا، على قدر لا بأس به من الاهمية، بالنظر، أساساً، الى نوعية الكتاب المعنيّ، الذي لا نتوانى عن اعتباره أكثر الأعمال عمقاً في موضوعه.

يتألف الكتاب من فصلين وعشرة ملاحق إحصائية تحاول الاحاطة بمجمل جوانب المسألة السكانية في فلسطين، على امتداد أكثر من ثمانية عقود، ومستقاة من مصادر عثمانية، واوروبية، وبريطانية، وصهيونية. وقد غطّى الفصل الاول سكان فلسطين في العهد العثماني، وصولاً الى العام ١٩١٤، مستعرضاً فيه نظام التسجيل العثماني للسكان، من خلال رصد، وتحليل، عدد السكان في السناجق الثلاثة (عكا، ونابلس، والقدس). أمّا الفصل الثاني، فقد استعرض فيه جهود سلطات الانتداب البريطاني في عمليات المسح السكاني لفلسطين.

ولم يكن أمراً مستغرباً ان يتوصّل مكارثي الى استخلاصات مناقضة، تماماً، لما توصّل اليه، قبله، عدد من الباحثين في هذا المضمار، لعلّ أهمهم جوان بيترز، التي حاولت استقصاء هذا الامر في كتابها عن الصراع العربي ـ اليهودي على أرض فلسطين، الواسع الانتشار. وستدل السطور اللاحقة على ما نرغب في اظهاره، خصوصاً تلك الاختلافات العميقة ليس في نظرة مكارثي وبيترز فحسب، بل في مستوى تحليل كلا الطرفين للموضوع قيد البحث.

وليس، طبعاً، من باب الصدف، ان يمتلك مكارثي ناصية اللغة التركية. فقد سمح له ذلك الاطلاع على السجلات العثمانية في لغتها الأصلية؛ ذلك ان أهمّ مفتاح لفهم الديمغرافيا الفلسطينية، في القرن التاسع عشر ومطلع القرن الحالي، تحتويه تلك السجلات، وهو الأمر الذي أتاح للمؤلف إعادة تقويم تلك المعطيات، بعد ان ظلت المشكلة قائمة، ردحاً من الزمن، وهي ان عدداً قليلاً من الباحثين الذين استطاعوا التعاطي مع هذه